العنوان:	مقاصد القرآن الكريم
المصدر:	مجلة الوعي الإسلامي - وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت
المؤلف الرئيسي:	الربيع، وليد بن خالد
المجلد/العدد:	س 45, ع 509
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2008
الشهر:	محرم - يناير
الصفحات:	30 - 32
رقم MD:	445878
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القرآن الكريم، الدراسات القرآنية، علم المقاصد
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/445878

مقاصد القرآن الكريم



د. وليد خالد الربيع
الكويت

قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين. اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ «الأعراف:١-٢»، أمر سبحانه باتباع كتابه لأنه سبيل الهداية وطرق النجاة كما قال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾«الإسراء-٩».

يقول الشاطبي: «إن الكتاب قد تقرر أنه كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه».

واتباع الكتاب الكريم وامتثال أحكامه وتكاليفه متوقف على الفهم الصحيح للأدلة الشرعية قبل الشروع في العمل بموجبها، لأن حسن الفهم مقدمة لصحة العمل، إذ إن الجهل بدلالات النصوص والفهم الخاطئ لها سبب لسوء التطبيق ومخالفة مراد الشارع من وضع الأحكام، وفي هذا يقول ابن القيم: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هم ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «حاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم».

ومن أهم المطالب لفهم القرآن الكريم «معرفة مقاصده الكريمة وغاياته الجليلة»، ومقاصد القرآن الكريم، هي الأصول الكلية والقواعد العامة والمصالح العظيمة التي أودعها الله القرآن الكريم.

وهنا يرد سؤال وهو: كيف لنا معرفة مقاصد القرآن الكريم؟

إن التدبر الصحيح والفهم السديد من أهم أسس إدراك مقاصد القرآن، وقد بذل العلماء قديما وحديثا جهوداً كبيرة، وأمضوا أوقاتا كثيرة في التأمل والتدبر والاستقراء للوقوف على مقاصد القرآن الكريم الكلية والجزئية، وقد تنوعت المقاصد التي وقفوا عليها، وتعددت الغايات التي

اهتدوا إليه، وهذا ما تؤكده أبحاثهم النفيسة التي أودعوها مصنفاتهم ومقالاتهم، وهذه جولة موجزة بين تلك النفائس المنثورة لنقف على ما انتهى إليه اجتهاد العلماء من ظن بمقاصد القرآن الكريم، فيعرف المسلم حين يتلو هذا القرآن العظيم ما فيه من المقاصد الجليلة والغايات الكريمة فيعتبر ويمتثل وينتفع.

قال الشاطبي في الموافقات مبيناً مقصود لقرآن الأول: «وهو الذي نبه عليه العلماء، وعرفوه مأخوذا من نصوص الكتاب، منطوقها ومفهومها، على حسب ما أداه اللسان العربي فيه، وذلك أنه محتو من العلوم على ثلاثة أجناس هي المقصود الأول: أحدها: معرفة المتوجه إليه، وهو الله المسدود سبحانه، والثاني: معرفة كيفية التوجه إليه، والثالث: معرفة مآل العبد، ليخف الله ويرجوه، وهذه الأجناس الثلاثة داخلة تحت جنس واحد وهو المعبود، عبر عنه قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾ ، فالعبادة هي المطلوب الأول.

فالأول: يدخل تحته علم الذات والصفات والأفعال، ويتعلق بالنظر في الصفات أو في الأفعال النظر في النبوات، لأنها الوسائط بين المعبود والعباد.

والثاني: يشتمل على التعريف بأنواع التعبدات من العبادات والعادات والمعاملات، وما يتبع كل واحدمنها من المكملات، وهي أنواع فروض الكفايات.

والثالث: يدخل في ضمنه النظر في ثلاث مواطن: الموت وما يليه، ويوم القيامة وما يحويه، والمنزل والمستقر الذي يستقر فيه، ومكمل هذا الجنس الترغيب والترهيب، ومنه الإخبار عن الناجين والهالكين وأحوالهم، وما أداهم إليه حاصل أعمالهم» أ هـ باختصار.

وقال الزركشي في البرهان – ومثله القاضيابن العربي في قانون التأويل: «وأما علوم القرآن ثلاث أقسام: توحيد وتذكير وأحكام:

فالتوحيد: تدخل فيه معرفة المخلوقات ومعرفة الخالق بأسمائه وصفاته وأفعاله.

والأحكام: ومنها التكاليف كلها وتبين المنافع والمضار والأمر والنهي والندب.

فالأول: ﴿وإلهكم إله واحد﴾ «البقرة- ١٦٣»، فيه التوحيد كله في الذات ولاصفات والأفعال.

والثاني: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ «الذريات-٥٥».

والثالث: ﴿وأن أحكم بينهم﴾ «المائدة -٤٩»، ولذلك قيل في معنى قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ «الإخلاص-١»، تعدل ثلث القرآن يعني في الأجر وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقيل: ثلثه في المعنى، لأن القرآن يعني في الأجر وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقيل: ثلثه في المعنى، لأن القرآن ثلاثة أقسام كما ذكرنا، وهذه السورة اشتملت على التوحيد، ولهذا المعنى صارت فاتحة الكتاب أم الكتاب لأن فيها الأقسام الثلاثة: فأما التوحيد فمن أولها إلى قوله ﴿يوم الدين﴾، وأما الأحكام ف ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، وأما التذكير فمن قوله ﴿اهدنا﴾ إلى آخرها، فصارت بهذا ﴿أمّا﴾ لأنه يتفرغ عنها كل نبت، وقيل صارت ﴿أمّا﴾ لأنها مقدمة على القرآن بالقبلية والأم قبل البنت» أ هـ.

وقال الزرقاني في مناهل العرفان: «إن الله تعالى في إنزال كتابه العزيز ثلاثة مقاصد رئيسية: أن يكون هداية للثقلين، وأن يقوم آية لتأييد النبي ﷺ، وأن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس.

وهداية القرآن تمتاز بأنها عامة وتامة وواضحة: أما عمومها فلأنها تنتظم الإنس والجن في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان قال الله سبحانه ﴿وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ «الأنعام – ١٩»، وقال جلت حكمته ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذين بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ «الأنعام -٩٢».

وقال عز اسمه ﴿قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ «الاعراف -١٥٨».

وأما تمام هذه الهداية فلأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخالق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذين يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، اقرأ إن شئت قوله سبحانه: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى...﴾ «البقرة-١٧٧»، الى غير ذلك من آيات كثيرة.

وأما وضوح هذه الهداية فلعرضها عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه كل وسائل الإيضاح وعوامل الاقناع، أسلوب فذ معجزة في بلاغته وبيانه، واستدلاله بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بلغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص حكيم مختار يقوى الإيمان واليقين ويهذب النفوس والغرائز ويصقل الأفكار والعواطف، ويدفع الإنسان دفعا إلى التضحية والنهضة، ويصور له مستقبل الأبرار والفجار تصويراً يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن يخرجنا استعراضها عما نحن بسبيله الآن، والمهم أن نعلم في هذا المقام أن الهدايات القرآنية الكريمة منها ما استفيد من معاني القرآن الأصيلة ومنها ما استعيد من معانيه التابعة» أ هـ.

وقال الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مقاله (تشابه مقاصد القرآن): «قال الله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني

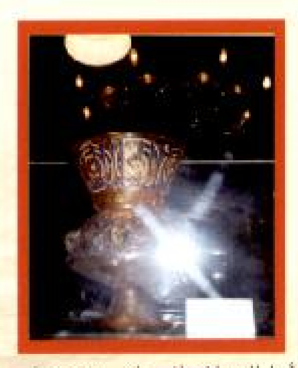
تقشعر منه جلود الذين يخشون﴾ «الزمر -٢٣»، فوصف القرآن بأنه كتاب متشابه، وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع التي يشتمل عليها، وتكرر في كل سورة من سوره، وكلها أنواع متشابهة المقاصد، متقاربة الأغراض لا تخرج عن الوظيفة الدينية للقرآن، ولا تحيد عن الغاية الدينية التي نزل من أجلها، لأنه نزل لتشريع العقائد والأحكام، فيجب أن يقف عند حدودها، وأن يكون كل ما فيه من أوامر ونواه ووعد ووعيد وقصص ومواعظ وغيرها، متصلا به فلا يقصد منه غير هذا من بيان مسائل التاريخ أو الطب وغيرها من العلوم، لأن لم ينزل لغرض من هذه الأغراض، وإنما نزل للأغراض السابقة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي.... وقد حددت الوظيفة الدينية للقرآن في فاتحته وهي أول سورة منه، وهو في هذا يبين أنه يراد من القرآن الهداية إلى صراط مستقيم، وهو الدين الذي بعث به النبي ﷺ، والكتاب يقرأ من فاتحته، فهي التي تحدد المقصود منه، وتبين الغرض الذي يريد تحقيقه، وقد توالت سور القرآن بعد هذ الفاتحة فسارت في هذا الفاتحة، فسارت في هذا الغرض الذي حدد فيها، ولم تحد سورة منها عنه، وبهذا تشابهت سوره في أغراضها ومقاصدها، ما تشابهت في أوامره ونواهيه وما إليها مما اشتمل عليه «أ هـ.

وقال الشيخ أحمد الشرباصي في مقاله «حول مقاصد القرآن»:

والحكم المعتدل القاصد هنا هو القرآن الكريم كتاب دين وعلم وبلاغة، ولكل قاعدة من هذه القواعد الثلاث نصيبها، والوقع ان المائدة القرآنية حافلة بألوان من المطاعم الروحية، والعقلية والبيانية التي ترضي مختلف الرغبات والمطاح، ولكن هذه المائدة تحتاج - لتعطي ما عندها- إلى بصر نافذ عند الجلوس إليها، وذوق سليم عند التناول منها... ومن العجيب أن الجدال يدور ويثور حول موضوع العلم في القرآن، ويتحدثون عن هذا فيطلبون الحديث، ما بين إثبات ونفي، ويتكون الحديث عن الغرض الهام للقرآن، وهو أن يكون كتاب توحيد وهداية وتشريع وأخلاق» أ. هـ.

وممن أجلى مقاصد القرآن الكريم ولخصمها بأبلغ معني وأدق عبارة الشيخ الطاهر ابن عاشور في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) فقال ما ملخصه: «إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ «النحل-٨٩»، فكان المقصد الأعلى منه «صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية».

فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد، لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر.



أما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه. ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرفات الناس بعضهم من بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات، ومواثبة القوى النفسانية. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

أما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط ترصف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لبيان مقاصد القرآن الكريم ما سطره الاستاذ عبدالحميد عشاق في مقالته الجامعة (المقاصد القرآنية) حيث عرض لجهود العلماء السابقين واللاحقين في استجلاء وتقري مقاصد القرآن الكريم من خلال آياته وسوره، ومن منطوقه ومفهوماته، وتحديد مطالبه وتعاليمه.

والخلاصة بعد هذه الجولة الموجزة أنه يمكن القول بأن مقاصد القرآن الأسمى وغايته الأعلى هي هداية الناس عموما وخصوصا في الدنيا والآخرة. يظهر هذا من فاتحة الكتاب التي اشتلمت على مقاصد القرآن الكلية وفيها قال عز وجل مبنا الغاية والوسيلة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم﴾، ثم قرر ذلك في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، ووضح تلك الهداية تفصيلاً في قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، ووضح تلك الهداية تفصيلاً في آيات هذه السورة العظيم، ثم أكد هذا المقصد في مطلع سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل هدى للناس. وأنزل الفرقان﴾، أي هو كذلك هدى للناس، وهكذا في كل موضع يذكر فيه القرآن تجد الإشارة إلى معنى الهداية فيه ابتداء أو إنتهاء أو بما فيه من النور والمواعظ والأحكام والأخبار التي تهدي إلى صراط الله تعالى في الدنيا وإلى الجنة في الآخرة، فحري بمن يتلو كتاب الله عز وجل أن يستحضر هذا المعنى الكلي عند تلاوته وأن يستنير به عند تدبره، لتتسق عنده المسائل الجزئية، وتتكامل المقاصد الكلية في نظام بديع، فلا يضل فهمه ولا تزيغ قدمه، ويكون من الراسخين علماً وعملاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.